"طارد الشياطين"

نموذج للرواية الميتافيزيقية المعاصرة

تأليف وليم بيتر بلاتي

بقلم محمد الحديدي

« ولما خرج الى الارض استقبله رجل من المدينة كان فيه شياطين منذ زمان طويل ، وكان لا يلبس ثوبا ولا يقيم في بيت بل في القبور . فلما رأى يسوع ، صرخ وخر له وقال بصوت عظيم : مالي ولك يا يسوع يا بن الله العلي ؟ أطلب منك ألا تعذبني . لانه امر الروح النجس ان يخرج من الانسان ، لانه منذ زمان كثير كان يخطفه. وقد ربط بسلاسل وقيود محروسا ، وكان يقطع الربط ويساق من الشيطان الى البراري . فساله يسوع قائلا: ما اسمك ؟ فقال : لجئون ، لان شياطين كثيرة دخلت فيه. وطلب اليه ان لا يامرهم بالذهاب الى الهاوية . وكان هناك قطيع خنازير كثيرة ترعى في الجبل ، فطلبوا اليه ان يأذن لهم بالدخول فيها فاذن لهم ، فخرجت الشياطين من الانسان ودخلت في الخنازير فاندفع القطيع من على الجرف الى البحيرة واختنق » .

لوقا ٨ : (٢٧ ـ ٣٤)

يمارسون في الغرب هذه الايام ـ فيما يأتون به من « تقاليع » ـ شيئا اسمه « عبادة الشيطان » . ولم لا ؟ ما دام لدينا اللاهوتيون ابليس ، فلماذا نختار هذا وننبذ ذاك ؟ وبناء عليه فقد انشئت « كنيسة ابليس الاولى في سان فرانسيسكو » التي يحميها قانون ولاية كاليفورنيا . انشاها سنة ١٩٦٦ مدرب حيوانات سابق يدعى « انطون لافيي » ، وتمارس فيها طقوس وعقائد واخلاقيات تقلب تعاليم المسيحية ، فمثلا « من ضربك على خدك الايمن ، حطم خده الايسر » ، ـ (طوبى للاقوياء ، لانهم سيرثون الارض) .

وينتمي لهذه الكنيسة عشرة آلاف شخص ، كثيرون منهم من خريجي الجامعات ، يتقابلون في ضوء القمر ، ويخلعون ملابسهم و « تاخذهم الجلالة » فينهمكون في رقصات شيطانية أو يفرسون الابر في عرائس على شكل أعدائهم .

وفي شيكاغو يوجد « معبد الطريق الوثنية » . وفي انجلترا ، تنظم شركة « بان اميركان » للطيران دورة سياحية خاصة (تتكلف ٦٢٩ دولارا ، لمن يرغب) تسمى « الدورة الروحانية » ، تتضمن زيارة لمركز العلاج الروحاني ، وجلسة تحضير ارواح ، بل ان (الحركة) وصلت في انجلترا الى حد ان مجلسا مسكونيا من الانجليكان والكاثوليك اوصى ـ مقاومة لهدف الحركة ـ بان تعين كل ابرشية « طاردا » (EXORCIST) ليطرد الشياطين والعفاريت والارواح

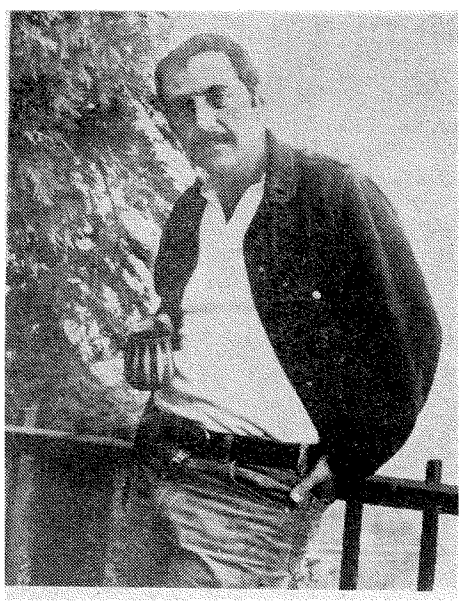

الشريرة . وفي فرنسا ، تتحدث في الاذاعة كل اسبوع عرافة اسمها « مدام سوليي » لتدلي بنصائحها لجمهور المستمعين ، ويقال ان ما يسمى « القداس الاسود » ـ وهو ما يتمثل كثيرا في الرواية موضوع مقالتنا هذه ـ يعقد بكثرة في باريس وليون ، وفي المانيا ، يقدر عدد المنتمين للكنائس والعقائد الشيطانية بثلاثة ملايين ، و عدد « المتعاطفين » معهم بسبعة ملايين ، وفي سويسرا ، منذ سنوات قليلة ، عذبت فتاة حتى الموت عملا على طرد الارواح التي تلبستها.

ولكي لا يطول بنا الحديث وتخرجنا العفاريت عن موضوعنا ، سنكتفي بان نضيف ان العقيدة الجديدة تنقسم الى اربع فئات رئيسية : « الابليسية » ، وتدعو الانسان الى الالتزام بطبيعته الحيوانية والتجرد من كل ما هو روحاني ومن كل ما يدعو لانكسار الذات ، وهذه هي « ديانة » لا فيي (يبدو ان الحيوانات اثرتفيه باكثر مما يعرف هو) ، ثم (السحر) ، وهذه طائفة تتزعمها امريكية اصبحت مليونيرة من هذا الطريق تدعى « سيبيل ليك » (وكلمة سيبيل ، لقب يطلق على الساحرات منذ أساطير الاغريق) تزعم انها تنحدر من نسل من الساحرات يرجع الى سنة ١١٣٤ .وهؤلاء

يعارضون الابليسية ويقولون بانها هي الموت ، اما السحر فهوالذي يطيل الحياة ويحفظها .

تأتي بعد ذلك « النبوءة » وهي التعرف على المستقبل والتحكم فيه ، بدلا من (الرضا بالقضاء) وهو (الموضة القديمة) ، ثم « الروحانية » ، وهؤلاء يلجأون الى الارواح في كشف خبايا الماضي والحاضر والمستقبل ، والعلاج الطبي ، ومحاربة الاعداء .

لمثل هذه الافكار آثارها العملية والفكرية . ففي مجال الفكر، يوجد في سان فرانسسكو ايضا « المركز الميتافيزيقي » ويحوي مكتبة ودارا لبيع الكتب ، ويقدر ما يبيعه لقراء الغيب والعفاريت كل شهر بحوالي ٦٠ ٪ من رصيده الذي يبلغ ٢٥ الف دولار من المراجع « القيمة » ، كما يعقد الدورات التدريبية في تحضير الارواح والتنجيم ويبيع الملابس الخاصة بالجلسات ، والبخور والاعشاب والتعاويذ والاحجبة والكرات البلورية وكل انواع « العدة » . وفي السنوات الاخيرة ، خرجت الى قراء الادب كتب وقصص وروايات تمثل الموجة الجديدة . منها « طفل روزماري » للكاتب الاميركي اليهودي « ايرا ليفين » والتي تصور ميلاد ابن ابليس في نيويورك من امريكية تدعى « روز ماري » ، وتتخذ تقويما (ميلاديا) جديدا يجعل سنة ١٩٦٦ هي (سنة واحدة) ، وقد تمت الولادة على يدي طبيب يهودي . وقد اعدت هذه القصة للسينما وعرضت في مصر سنة ١٩٦٨ ، وتبعتها موجة من الكتب منها (تليس جويل ديلاتي) و « الاخر » ، واخرها كان هذه الرواية THE EXORCIST التي نشرت في اواخر العام الماضي وما تزال حتى الآن من اوسع الكتب انتشارا في العالم كله . والذي فعله ليفين بقصة ميلاد المسيح، يفعله وليم بلاتي بالاصحاح الثامن من انجيل لوقا ، فهو يقلبه لتاتي النتيجة مناسبة « لحقائق » هذا العصر ، من الذي يسقط في (الهاوية) سنة ١٩٧١ ؟ ليس الخنازير بالطبع . من اذن ؟

سنتناول القصة من ناحيتيها : الفلسفية والفنية ، لنخرج من ذلك بما فيها من فكر ميتافيزيقي ، وفكر ادبي او روائي، خاصة الاتجاهات الشيطانية هذه الايام !
والاتجاهات الروائية المعاصرة اكثر تضاربا وتغيرا وابتداعا من هيكل الرواية :

نحار اولا في هذا الاسم THE EXORCIST ، ونعتذر للقارىء فهي كلمة لا نظن ان لها في العربية مقابلا لا يختلف عليه اثنان (*)، فهي تعني كل من يصرف الشياطين والارواح الشريرة بالصلاة او الرقي او التعاويذ ، وهو في هذه القصة قسيس من طائفة الجزويت جاءوا به خصيصا ليطرد الشيطان من جسد طفلة في الثانية عشرة ، وقد سبق له ان اجرى هذه الطقوس مرة غير هذه .

تنقسم الرواية الى : مقدمة بعنوان « في شمال العراق » ، حيث يقدم لنا المؤلف هذا القسيس الكبير ـ ويدعى « ميرين » ـ وهو في رحلة كشف اثري ، (ويحادثه واحد من العرب) كمان شاي خواجا ؟ ، « الله معك خواجا ! » (ثم يلي ذلك اربعة اجزاء عناوينها بالترتيب ، (البداية) ثم « الحافة » ثم الهاوية ثم وليدخل اليك صراخي ، وهي آية ترد في طقوس صرف الارواح ، يرجع اصلها الى المزمور ١٠٢ لداود ، وبعد كل ذلك « نهاية » . هذا التركيب ليس شكليا فحسب ، بل هو سلسلة الاحداث كما بناها المؤلف على المقابلة او التقابل بين السيد المسيح ، والرجل الذي تلبسته الشياطين .

تدور الوقائع كلها في ضاحية « جورجتاون » المجاورة لمدينة واشنطون الامريكية ، وهي جامعة كاثوليكية ، بها اساتذة من قساوسة الجزويت ، ولكي ينقل المؤلف وقائع قصته الى هناك ـ فهو في حاجة ماسة لهؤلاء القساوسة ـ يأتي بممثلة ومخرج سينمائي ، ينتقلان مع بقية طاقم التصوير ، الى ساحة الجامعة حيث يجري تصوير فيلم فيها ، ويتخذ للممثلة مسكنا تستأجره هناك .

يبدو ان مؤلفي هذا النوع من القصص يحبون جو « السينما»، فقد كان زوج روزماري في (طفل روزماري) ممثلا . وهنا ايضا (كريستين ماكنيل) ممثلة شهيرة ، منفصلة عن زوجها ، مما يضايق ابنتها الصغيرة (ريجان) وهو اقرب اسم امريكي الى ماهو بالعربية « لجئون » ، وبالانجليزية LEGION

هذه البنت في الثانية عشرة وتحب اباها ولا يعجبها انفصال امها عنه . وهي بذلك تجمع بين اثنين : سن المراهقة ، والتي يقول علماء الارواح انها للفتيات اعلى درجة من «الوساطة الروحانية» ، ثم « الشعور بالذنب » لانها قد تكون سبب انفصال امها عن ابيها ، وبذلك يرسم المؤلف اتجاهين قبل بداية القصة : الاتجاه الميتافيزيقي، والاتجاه السيكولوجي ، وهو يظل طيلة الرواية ـ او على الاصح اغلبها ـ ممسكا بهذين الخطين ، فهو يأتي بالخرافة كما يشاء ، ومعها ما يمكن ان يقال انه حالة نفسية لدى هذه الطفلة ، وبذلك يظل « معاصرا » و (علميا) ، وسوف نأتي لذلك .

اما بقية الشخصيات فعلى رأسها : القسيس « ميرين » ، وقسيس آخر ـ هو اروع شخصيات الرواية كلها ـ يدعى « كراس » ، بتشديد الراء ، وهو في ذات الوقت طبيب نفساني . وبذلك فهو يجمع الدين والعلم والسيكولوجيا في رجل واحد ، رجل يعرف الروح والجسد والعقل وفي مكنته ان يداعب كلا منها او الثلاثة معا . لا بأس بذلك ، فالاطباء النفسيون يوجدون ، ولو راق لاحدهم ان يدخل الى سلك الكهنوت فانه سيأتي لنا بمثل هذه الشخصية الهامة . اقصد « الهامة » في موقف كهذا .

الى جانب ذلك هناك : المخرج السينمائي صديق الام ، سكير بذيء اللسان ، وخادمان غامضان يشتغلان بالمنزل ، سويسريان اصلا ، وضابط شرطة يظهر على المسرح عندما يقتل المخرج على اثر سقطة في الطريق ويجدونه وقد التوى رأسه واصبح وجهه الى الخلف تماما ، يعني « للخلف در » بالراس فقط، وكان شيطانا قتله ! يشككنا المؤلف قليلا في الخادمين بنزعة « اجانا كريستية » خفيفة ما يلبث بعدها ان يعود الى ما هو فيه . بظهور ضابط الشرطة ، تحضر « الحكومة » ، كما حضر ابليس ، وبذلك تكتمل الحلقات على المسرح : الانسان ، والشيطان ، والدين ، والعلم والطب ، والحكومة .

بناء الشخصيات :

لا يجهد المؤلف نفسه كثيرا في بناء شخصيات متميزة ذات خلفيات عميقة الجذور . ولا عجب في ذلك ، فالمؤلفون في هذا العصر قد تخلصوا تماما من هذه « العادة السيئة » ، دستويفسكي وبلزاك وما الى ذلك ... هذه امور تتعلق بعصور كانت الرواية فيها تبلغ سبعمائة صفحة والناس لديهم الوقت للقراءة . اما الان ... فالشخصيات لا تزيد عمقا عن الشخوص التي نراها في فيلم سينمائي غير ملون . وعلى هذا فالممثلة مجرد ممثلة ، والمخرج مجرد مخرج سكير ، والطفلة ... طفلة . شيء واحد فقط يشذ عن ذلك هو القسيس الطبيب النفسي . شخصيته تلقى العناية التي تستحقها هذه التوليفة . ولكن القصد النهائي هو الحدث ، الحدث الميتافيزيقي والحدث المادي ، فالشخصية في ذاتها ليست هدفا . نجد المؤلف يقطع سياق قصته فجاة ـ وهي قصة تسير في اطار زمني مطرد مرتب لا خروج عنه ـ ويرجع بنا فجاة في « فلاش » عفريتي يذهل القارىء ، ليرينا جنازة أم كراس

(*) تعليق التحرير : مقابل هذه الكلمة في العربية هو «المعزم» (بتشديد الزاي) وهو طارد الارواح الشريرة بالتعزيم او الرقي ـ راجع قاموسي « المورد » و « المنهل » .

ومنظر ابنها وهو يودعها القبر ؟ لماذا ؟ ليحدث عنده عقدة شعـــور بالذنب لانه وقد ارسله الجزويت الى الجامعة ليدرس الطب ثم العلاج النفسي ، قرر ان يصبح كاهنا ، وأمه الفقيرة التي تأتي من اصـــل اجنبي وتنتمي الى اقلية لاتينية فقيرة ، كانت تحلم بان يصبح ابنها طبيبا ليخرجها مما تعانيه من فقر ، ولكنه نذر نفسه للكهنوت ، فعاشت امه فقيرة ، تشحذ احيانا ، ثم مرضت بالسرطان ولم تعالج علاجـــا كافيا ـ لفقرها ـ ثم ماتت . وهكذا يشعر القسيس بالندم يعذبه ويجعله يرى اخيلة امه ، سواء وهو يلقي موعظة فـي الكنيسة ، او وهو يعالج الطفلة التي تلبسها الشيطان ، فيجدها احيانا تتقمص شخصية امه وتحدثه بصوتها . أهي حقا تتلبسها ارواح الموتى ؟ هذا هو الكاهن . ام هي تعاني من انفصام الشخصية ؟ ، او عقلها الباطن يجعلها تلعب كل هذه الادوار دون ان تدري ؟ هذا هو الطبيب .

هذه الشخصية الفريدة هي الوحيدة التي يعنى بها المؤلف مـن جذورها الى قمتها . ولكن هدفه ـ كما اسلفنا ـ ليس الا ان يجعل من هذه الشخصية اداة يخدم بها الحبكة . والحبكة هنا حبكـــة ميتافيزيقية قبل اي شيء ... فانقصة باكملها في هذه السطور القليلة من « لوقا » او « مرقص » ـ ولكن هذا الكاهن هو الذي سيقع فـي الهاوية ... وليس الخنازير التي تلبستها الارواح . لقد وثب الشيطان من جسد البنت الى جسد الكاهن فألقى بنفسه من النافذة الى شارع « M » في واشنطون ، لان هذا هو الجديد في الموضوع . فكيف يفسر ذلك ؟ أهو فعل الشيطان ؟ هذا هو الخط الميتافيزيقي . ام هـــل انتحر الكاهن ندما على تقصيره في حق أمه ؟ هذا هو الخط الروائي. وقد ظل المؤلف طيلة الرواية ممسكا بهذين الخيطين بكلتا يديه ، جاهدا الا يلجأ الى الخرافة الصريحة ... ولكنه قرب النهاية .. اما انـــه يتعب ، واما انه « تأخذه الجلالة » هو الآخر ... واما انه ، بعد ان عجز الاطباء عن علاج الحالة ، وتركوا الساحة للقساوسة ، اصبح لا بأس اذن من ان تتحدث باصطلاحات التلبس والعفرته ، وهكذا في الجزء الاخير لم يعد المؤلف يقول ان « ريجان » فعلت او قالت ، ولكن « الشيطان » هو الذي قال وفعل .

الاحـداث :

لعله يجدر بنا الان ان نلم وقائع القصة مجردة من تحليل شخصية القسيس ، ثم تحليل افكاره فيما يراه من حالة البنت ـ وفيما عـدا ذلك لا يوجد في الرواية أي تحليل ـ وانما يقتصر المؤلف على سرد درامي للاحداث والحوار .

تبدأ المتاعب بظواهر غريبة تحدث في كنيسة الجامعة تدل على وجود من يريد أن يستهزىء بها ويهين مقدساتها . قاذورات على المذبح، اشياء قبيحة تربط بتمثال العذراء ، كلمات فاحشة على ورق ..... الخ ، وفي حفل صغير تقيمه الممثلة « كريس » ، نستمع لاحـــد القساوسة يحكي ما حدث للضيوف ـ والقساوسة في هـذه الرواية كلهم يدخنون ويشربون الويسكي سواء وهم ضيوف او وهم بمفردهم .

وتبدأ ايضا اعراض غريبة تظهر على البنت . فهي تأتي افعـــالا شاذة ، وتتفوه بكلام قبيح ، ولكن لا شيء حتى الان يدل على وجـــود خوارق للطبيعة ، بل مجرد حالة نفسية غريبة .

تعرض الام ابنتها على طبيب ، ثم على طبيب نفسي . ويلجأ الطبيب النفسي الى التنويم المغناطيسي ويحادث « شخصا بداخل البنت » ولكنه لا يحصل منه الا على رطانة تظهر فيما بعد انها كلام مقلوب ، وقرب النهاية تدار هذه الاحاديث المعكوسة على جهاز تسجيل في اتجاه عكسي فتتحول الى انجليزية سليمة . يحار الطب تماما في امر هـذه الحالة ، تبدأ الام في البحث في كتب الشياطين والتلبس ، فتجـــد الكثير مما ينقله لنا المؤلف ، ومنه هذا مثلا : « يظن الناس عـادة ان اصول الصورة الشيطانية للتلبس ترجع الى المسيحية المبكرة ، والواقع ان التلبس والطرد كلاهما يسبقان المسيحية ، فقد كان قدماء المصريين، والحضارة المبكرة في كل من دجلة والفرات ، يعتقدون بان الاضطرابات الجسمانية والروحية تنتج عن احتلال الشياطين للاجساد . وهذه مثلا هي التعزيمة التي كان قدماء المصريين يستخدمونها لمعالجة امـــراض الاطفـال .

ـ اذهب من هنا ، انت يا من تأتي في الظلام ، يا من أنفه مثنى للمخلف ، ووجهه مقلوب لاسفل ، هل جئت لتقبل هذا الطفل ؟ لـــن اسمح لك ... »

تقرأ الام الكثير من هذا ، ولكنها لسوء حظها ـ في اشياء كثيرة ـ لا تستطيع ان تقرأ رسالة الغفران ، والتي لا شك توجد في مكتبـــة الكونجرس ، على مسافة دقائق بالسيارة من جورجتاون ، وهكـــذا يفوتها ـ برغم كل ما قرأته ـ قول ابي العلاء على لسان الجني « ابـي هـدرش » :

وكم عروس بـات حراسهـا	كجرهم في عزهـا او جـديس
غـــرت عليهـــا فتخلجتهـــا	بواشك الصرعة قبل المسيس
وأسلك الفـــادة محجوبـــة	في الخدر او بين جوار تميس
لا أنتهي عـن غرضي بالرقـي	اذا انتهى الضيغم دون الفريس

وان كان في هذا الفصل من الرسالة التي مضى عليها اكثر من الف عام ، سخرية من هذا كله تكفي في حد ذاتها لصرف الشياطين . تلجأ الام ـ وهي ملحدة لا دين لها ، وكذلك ابنتها بالنشأة ـ الـى القس الجزويتي ، الذي يعمل محاضرا في الطب النفسي بجامعـــة جورجتاون (وان لم يكن طبيبا مرخصا له بمزاولة المهنة ، وذلك بحكم كونه قسيسا) ويقضي القس الطبيب اياما مع البنت وهي تتخـــذ شخصيات مختلفة من البشر والعفاريت ، وحين لا ينفع معها شـــيء فانه يلجأ الى السلطات الكاثوليكية طالبا السماح له باجراء طقـــوس « التعويذ » أو « التعزيم » او « طرد الشياطين » ، والتي يشترط بها موافقة هذه السلطات ، والتي تنص الكنيسة الكاثوليكية في وضوح على انه يجب توفر شروط لها منصوص عنها في كتب « الطقوس » ، يعرض كراس الامر على الاسقف الذي يرى أنه لا بد من قسيس « ذي خبرة » ، وهنا يأتي الاب « ميرين » ، يستدعونه من شمال العراق ، وتبدأ الطقوس ويصفها لنا المؤلف وصفا بالغ الروعة يدل على خلفيـة دينية وثقافيه عريضة ، ولا غرو فهو نفسه خريج جورجتاون وتربى على يدي الجزويت .

من هنا يبدأ « الشيطان » يصبح اكثر صراحة ، وتبدأ الظواهر الغريبة في الوضوح، ويحلق السرير في الهواء،وتزعق«البنت» باسـم القسيس وهو على عتبة البيت وما الى ذلك . تشتد المعركة مع القسيس الذي سبق له ان هزم الشيطان مرة قبل هذه ، وفي فترة راحة نقرأ هذه المحادثة الرائعة بينه وبين الاب كراس ، في الخطيئة والارادة .

« قال كراس :

ـ انك قلت ... سبق ان قلت .. ان هناك كيانا واحدا فقط

ـ نعم ، كل الصور الاخرى ما هي الا صور للاصابة ، هناك واحد ... واحد فقط ، وهو شيطان .. اعرف انك تشك في هذا ، ولكنني قابلت هذا الشيطان مرة قبل هذه ، وهو قوي ... قوي ..

ـ نحن نقول ان الشيطان ... لا يستطيع ان يؤثـــر على ارادة ضحيتـه .

ـ نعم ، الامر كذلك ... الامر كذلك ، ليست هناك خطيئة .

ـ اذن ... ما الغرض من التلبس ؟ ما الفكرة ؟

ـ من يدري ؟.. وان كنت اظن ان هدف الشيطان ليس الشخص الذي يتلبسه ، انه نحن ... كل من في هذا المنزل ، واظن .. اظن ان الهدف هو ان يجعلنا نيأس ، ان نرفض آدميتنا ، أن نرى انفسنا

في اصولها الحيوانية ، اصولها العفنة الدنيئة ، ان نرى اننا لا نساوي شيئا ... هذه هي الفكرة ، اذ انني اظن ان الاعتقاد في الله ليس مسالة استدلال عقلي على الاطلاق ، انه في النهاية مسالة محبة ، مسالة الاقتناع بامكان حب الله لنا . انه يعرف ... ان الشيطان يعرف اين يضرب ...

اطرق براسه برهة ثم مضى يقول :

ـ منذ زمن ، يئست تماما من ان احب جاري . بعض الناس ... ينفرونني ، كيف يمكنني ان احبهم ؟ هكذا فكرت ، وعذبني ذلك ، قادني الى اليأس من نفسي ، ومن هذا ... بسرعة ، الى اليأس من الله ، اختل ايماني ...

نظر كراس الى ميرين مشوقا ، وتساءل :

ـ ثم ماذا حدث ؟

ـ آه ... اخيرا ادركت ان الله لا يمكن ان يطلب مني ما اعرف انه مستحيل سيكولوجيا ، ان الحب الذي يريده ... حب في ارادتي، ولا يقصد به ابدا ان يكون محسوسا كعاطفة ، اطلاقا ... انه يريد مني ان « اتصرف » بحب ، ان اعامل الاخرين بالحب . وان اعامل من ينفرونني بحب ... وهو فيما اعتقد ، حب يفوق كل ما عداه . انا اعرف ان كل هذا يبدو واضحا ، ولكنني لم اكن اراه اذ ذاك . غشاوة غريبة ... ترى كم زوجا وزوجة يظنون انهم فقدوا الحب لان قلوبهم لم تعد تثب لرؤية احبائهم ! آه ، يا الهي الحبيب ، هنا يكمن فيما اظن ... ، التلبس ، ليس في الحروب كما يظن البعض ، بل ونادرا ما يكون في مثل هذه الحالات غير العادية ، كحالة هذه البنت المسكينة ... انه اكثر ما يكون في هذه الامور الصغيرة ، الاحقاد التافهة ، سوء الفهم ، الكلمات القاسية القاطعة التي تثب الى الالسنة بين الاصدقاء بغير داع ، وبين الاحباء ... كفانا من هذه ، ولن نكون في حاجة الى ابليس ليدير لنا الحروب ، هذه سوف نديرها بانفسنا ، لانفسنا » .

هذا هو مستوى الرواية كلها ! ازمة الانسان كاملة في كل سطر منها ! تستمر المعركة ، والفتاة موثقة الاطراف في السرير ، فهي لا يؤمن جانبها بعد ان هاجمت صديق امها المخرج ـ فيما هو مظنون ، وفيما تقوله روحه عندما تتلبسها ـ واتهمته بالتفرقة بين ابويها ولوت راسه بقوة شيطانية تفوق التصور . ينهك الجهد والسهر قوى القسيس العجوز ، فيسقط في نوبة قلبية ... مساعده « كراس » ، يهرع اليه فيجده ميتا ، تثور ثائرته ، وفي لحظة ينسى صفته الكهنوتية ، وينسى اهم تعاليم « الطقوس » والتي تقضي بالا يدخل في نقاش مع «الشيطان» ، فيسب الشيطان بكلام بذيء ، ويصفه بانه لا يجرب قدراته الا في تملك البنات الصغار ...« تعال ! تعال ! » هكذا يصيح به متحديا . هنا تنتقل « الكاميرا » الروائية الى البهو ، الام وصديقتها تسمعان ضجة ، فتصعدان مسرعتين ، فاذا بالابنة تعود كما كانت ، اما كراس القسيس الشجاع فاشلاء على قارعة الطريق ! في قاع « الهاوية » والمارة يظنون ان الامر لا يعدو سقوط سكير افرط في الشراب من نافذة بيته . هل قبل الشيطان التحدي ، ووثب الى جسد القسيس ، ثم القى به الى «الهاوية» ؟ ام ان القسيس الذي يعذبه الشعور بالذنب ، هزته الاحداث فانتحر ؟ الاولى هي الميتافيزيقيا، والثانية هي الادب الروائي ، والمؤلف يترك لنا الخيار !

الشكل الروائي :

كما اسلفنا ، تتتابع احداث الرواية تتابعا زمنيا مطردا ، وتتخذ في السرد اسلوبا دراميا يعتمد على الحدث والحوار ، وهما واقعيان الى اقصى درجة ، ولا يتورع المؤلف ان يأتي بفاحش القول ـ وهو امر درج عليه كتاب الغرب منذ سنوات ، فما دام الناس يتكلمون هكذا فهكذا الحوار ، وقد حوكم كثيرون من مدرسي الادب في المدارس والجامعات لانهم يتفوهون بالفاظ كهذه امام التلاميذ ، وحجتهم انهم لم يخرجوا عن دائرة عملهم كمدرسي آدب ، وهذا هو « الادب » المعاصر ـ بل ويعمد المؤلف في وصفه لكل ما هو شيطاني من فعل وقول ، الى الاتيان بعبارات ـ ثم باحداث ، يود القارىء عندما يأتي اليها ان يلقي بالكتاب ويبحث عن هذا المؤلف الشيطان و « يصرفه » ! ولن نستطيع ابدا ان نأتي بامثلة من هذا هنا ، لان المؤلف قد فاق كل من سبقوه في القدرة على اثارة الاشمئزاز ، ولكنه برغم ذلك محق تماما ، فهذه التاثيرية هي ما يجعل من هذه القصة ـ بكل أسف ـ عملا فنيا بهذا القدر من الروعة . ان جون شتاينبك في اضخم عمل له وهو « شرقي عدن » يأتي لنا بطفلة تحرق منزل ابويها وهما نائمان فيه عمدا ، ويتم لها ذلك ، وأب يصاب بمرض سري ينقله الى زوجته التي تفسر ما حدث لها على انه غضب من الله وعقاب لها على احلامها الغرامية فتنتحر وفي هذه الرواية نجد « بلاتي » يجعل شتاينبك وروايته يضربان المثل في النعومة والرقة !

ولا يفوتنا هنا وقد أتينا على ذكر « شرقي عدن » ـ ان نذكر ان هذه الرواية تناظرها من حيث معالجتها لقضية الخير والشر ، معالجة جريئة عميقة ، ومن حيث علو مستواها الفكري وقدرتها على البقاء ... ومما يشبهها ايضا ـ او ما يبدو لنا كذلك ـ رواية كامو « الطاعون » ، فهي ايضا تهدف الى تبيان ان الذين يتصدون للشرور التي تحوم فوق رؤوس البشر ـ او في غدهم اللمفاوية ـ سواء كانت شياطين ام جرائيم ، هؤلاء الذين يتصدون لها هم الذين يذهبون ضحيتها ... ان « كراس » هو بعينه « تارو » ، فقط لم يكن آلبير كامو يميل بهذا القدر الى خوارق الطبيعة ، وعندما اورد لنا قسيسا كاثوليكيا « الاب بانيلو » فقد كان يهدف الى شيء مختلف تماما « هل يمكن للانسان ان يكون قديسا بغير اله ؟ » هذا هو اللحن الرئيسي لقصته .

وبرغم ذلك نجد تعليقات الصحف تصف رواية « بلاتي » هذه بانها «من اشد الروايات اثارة للرعب منذ دراكيولا » ! اذا كانت مثل هذه العبارات هي التي تجعل الناس يقبلون على قراءتها فهذه هي فائدة الصحف ، وفائدة دراكيولا .

ولا يلجأ المؤلف ـ كما اسلفنا ـ الى تحليل للاحاسيس او الخواطر الا في موقف واحد يستعرض فيه براعته القصصية الى جانب علمه الزاخر بالسيكولوجيا وما اليها . ان القسيس الطبيب « كراس » ، وقد رأى البنت التي ... « تعاني الحالة » ، في احوال تحير اللب ، ما زال قادرا على تفسير كل ما يراه من ظواهر على اساس ما في علمه من فعل العقل الباطن والمرض النفسي . الطاقة الجثمانية الهائلة ، البرد القارس الذي يتملك غرفتها دائما ، الروائح الغريبة التي تنبعث منها ، قدرتها على قراءة افكاره ، تقليدها لاصوات احياء واموات يعرفهم ، حديثها له عن امه وانها تستحضرها له في الغرفة ، كتابات تظهر على جلدها بخطها وبخط غيرها ، سريرها الذي يهتز بعنف ، حديثها بلغات اجنبية لا تعرفها ... كل هذا يجد له تفسيرا علميا وان كان في لحظة او اخرى يضطر الى اللجوء الى تفسيرات من نوع « التخاطر » ، وهي ظاهرة اتصال اذهان الاحياء من بعيد . فهو لا يقول لنا صراحة ان هناك « شيطانا » بهذا الوضوح ، اللهم الا قرب النهاية ، وحتى هذا يمكن ان تعده تجاوزا ، فهو لا يستطيع ان ينسب ما يحدث من « ريجان » على انه يحدث منها ، فهي ـ على احسن الفروض ـ ليست في وعيها وما يقع منها ليس بارادتها .

ويعطي المؤلف نفسه حرية تامة في زاوية الرؤية ، فهو ينتقل من موقف لموقف متخذا لنفسه ما يسميه « بيرسى لوبوك » ، « العلم بكل شيء » لدى المؤلف الروائي . شيء واحد لا يقربه ، وهو ذهن ريجان ... بل وكل ما فيها ، لا استبعد ان المؤلف كان يخشى على نفسه من التلبس .

أغنية

أقعد لليل أجاوره ،
أستجديه الاشعار .
أصنع لحبيبي تاجا كي لا ترميه الشمس ،
... وخفا يحميه من الحجر ، ـ
وثوبا للمطر ؟ ـ
وزادا للاسفار .
ولنفسي اصنع اغنية ،
تمسك وجهي في الليل فلا ينهار .
انتظر حبيبي أن يأتي .

ليراني عريانا ،
ويـرى ..
وشم الايام المجنونة في صدري
فيناولني الخمرة والخبز ،
ويغسل أطرافي بالماء وبالنار ..
أنتظر حبيبي أن يأتي ،
لنسافر ونسافر ..
رغم الاسوار .

القاهـرة

فتحي فرغلي

المضمون الميتافيزيقي :

ماذا يريد ان يقول لنا ؟ اغلب المؤلفين ـ خاصة في مثل هـذه المواقف ـ يرفض ان يدلي باجابة على هذا السؤال ، ويزعم انه هـو نفسه لا يعرف . لعل الامر كذلك . هل يريد ان يقول لنا :

ان الشر اصبح يسود العالم ،ومن يعترض طريقه . يلقى حتفه ؟ وان قدرة الله التي انتزعت الشياطيين منذ الفي عام ، قد فقدناها ، ولم تعد في صفنا ، وانه لم يعد هناك من يحمينا منها ، وان الشياطين تعيث فسادا في اجساد البشر وفي نفوسهم ؟

هل هو من انصار عبادة الشيطان هو نفسه ، على اساس « الامر الواقـع » ؟

أم هل هو متدين يظهر لنا ان العلم الذي نصل اليه ليس الا « وجهة نظر » ، وان تطبيقاته محدودة المدى ... وان الانسان بحواسه عاجز امام غيبيات الكون ؟

كل هذا جائز ، ولكن المؤلف على اي حال يأتي بمقتبسات في اول قصته ، وبغيرها بين الفصول ، قد تعيننا على استجلاء فكرة . سنقتصر منها على ما يلي :

(١) جيمس توريللو : كان جاكسون معلقا على خطاف من النوع الذي تعلق عليه اللحوم عند القصابين ، وكان ثقيلا الى حـد ان الخطاف انثنى ، وقد بقى عليه ثلاثة ايام قبل ان يموت .

فرانك يوتشييري : (ضاحكا) : حقا ... كالفيل كان فـي ضخامته ، وعندما صدمه جيمي بالقطب الكهربائي ...

توريللو (متحمسا) : اخذ يدور حول الخطاف ، وقد صببنا عليه الماء لنعطي القطب الكهربائي اتصالا جيدا ، وهو يصرخ ...

(مستخرج من تسجيل لمكتب التحقيقات الفيدرالي لمحادثة تليفونية في كوزانوسترا ، تتعلق بجريمة قتل وليم جاكسون)

(٢) اما الثانية ، فهي هذه :

أعلن قائد لواء امريكي في فيتنام عن مسابقة لاجتياز الرقم الذي سجلته وحدته حتى الان وهو عشرة آلاف قتيل . ولمن يقتل اول فرد تجتاز به الوحدة هذا الرقم مكافأة هي الترفيه لمدة اسبوع في مقـر القائد .

(مجلة نيوزويـك ، ١٩٦٩)

(٣) ... لا يمكن تفسير بعض الافعال التي اقدموا عليها ، كالكاهن الذي وجد وقد دقت في رأسه ثمانية مسامير ... وكان هناك سبعة اطفال ومعلمهم ، كانوا يصلون « أبانا الذي » عندما اقتحم عليهم الجنود المكان ، استل احدهم نصل بندقيته وقطع لسان المعلم ، وجاء آخـر وجمع بضعة عيدان مما يستخدم في أكل الارز ، ودفع بها في آذان الاطفال السبعة . كيف يمكن ان تعالج حالات كهذه ؟

دكتور توم وولى

(٤) والى جانب ذلك مقتطفات منها :

« فقالوا له فأية آية تصنع لنرى ونؤمن بك ؟ » (يوحنا ٦ـ٣٠)

« ولكني قلت لكم انكم قد رأيتموني ولستم تؤمنون » (يوحنا ٣٦)

« من يثبت في المحبة ، يثبت في الله ، والله فيه » (رسالة يوحنـا)

القاهـرة

محمد الحديدي